الأبعاد التداولية عند الزمخشري في تفسيره لسورة النمل – نماذج مختارة -

The pragmatic dimensions of Al-Zamakhshari in his interpretation of Surat An-Naml – Selected models -

خديجة بصول*
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة
khadidja.bessoul@gmail.com

محمد خرباش
جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان
mhdkharbeche@gmail.com

تاريخ الارسال: 19- 06-2021	تاريخ التقييم: 01- 12-2021	تاريخ القبول: 30-12-2021

الملخص:

يسعى هذا العمل إلى الكشف عن جملة من المبادئ التداولية، التي تُعزى إلى الغربيين، والحق أنها ممتدةُ الجذور في أعماق التراث العربي، إذ كان لها تطبيق فعليٌّ عند الزمخشري في تفسيره، وقد جعلنا تفسيرَه لسورة النمل عيّنة على ذلك، حيث استوعب في تحليله لأساليب القرآن الكريم المناحي التداولية التي وضع أسُسَها وإجراءاتها أوستين وسيرل وغرايس. وقد عُني الزمخشري في تفسيره بالغرض المبتغى من كلام الله- عزوجل-، فالتفت إلى كل ما يحيط به من سياقٍ لغوي، ومقامات خارجية هي أسباب النزول.

كلمات مفتاحية: الأبعاد، التداولية، الزمخشري، تفسير، سورة النمل، نماذج، مختارة.

Abstract:

This work seeks to reveal a number of deliberative principles, which are attributed to the Westerners, and the truth is that they are deeply rooted in the Arab heritage, as they have had a real application at al-Zamakhshari in its interpretation, and its interpretation of Surat al-Annaml has made a sample of this, as it was absorbed in its analysis of the methods of the Qur'an. Deliberative aspects laid down and procedures, founded by Austin, Searle and Grace, has been concerned by the interpretation of the desired purpose of the Qur'an, and he turned to all the surrounding linguistic context, and external positions are the reasons for the descent of the Qur'an.

Keywords : Dimensions, pragmatic, Al-Zamakhshari, interpretation ,surat An-Naml, Selected, Models.

*المؤلف المراسل.

مقدمة:

تخطّت النظرية التداولية المعاصرة النظريات اللسانية الحديثة، التي أهملت إنجازية الأفعال اللغوية، واقتصرت على دراسة العبارات اللغوية، باعتبارها نظاما يُدرس في ذاته ولذاته، ودعا رواد النظرية التداولية المعاصرة إلى تفسير العبارات الإنجازية في إطارها الاستعمالي، باعتبارها نظاما للمعاملة التفاعلية التأثيرية؛ فقد نادى منظروها إلى الاهتمام بمقصود المتكلم، من إنتاج الخطاب اللغوي، وبكيفية التأثير في وجدان المتلقي وإقناعه، فاعتبروا اللغة ممارسة وجدانية، ومعاملة تواصلية، وعلى المفسر أن يُعنى بكل المعطيات اللغوية، وغير اللغوية، التي تحيط بالفعل الكلامي. والحق أننا إذا رجعنا إلى المدونات التفسيرية العربية القديمة، نجد هذه الأفكار حاضرة بقوة عند مفسري القرآن الكريم، ومن ذلك تطبيق الزمخشري لها في كشّافه.

وفي هذا البحث محاولة للإجابة عن تساؤلات ثلاثة انبثقت عن ثلاثة افتراضات، هي:

- نحن نسلّم ابتداء أنّ عملية التفسير تستند إلى وجود عناصر العملية التخاطبية من متكلم (مفسَّر له)، وقارئ (مفسِّر)، وسياق (مقالي أو مقامي).

أوليست هذه العناصر هي ذاتها عناصر التداولية؟

- يعد السياق بنوعيه: المقالي (اللغوي)، والمقامي (غير اللغوي)، الركن الشديد الذي أوى إليه الزمخشري في تفسيره لسورة النمل.

فهل يمكن عدّه ملمحا من ملامح الدرس التداولي؟

- اعتمد الزمخشري في تفسيره للأفعال الكلامية الواردة في سورة النمل على مبدإ التأدب في الحوار.

أفلا يكون بذلك سبّاقّا إليه، إذا ما قورن مع دراسة روبين لاكوف لمبدإ التأدب والقواعد التهذيبية المتفرعة عنه؟

وقد سعينا في هذا البحث للكشف عن أبعاد التداولية في تفسير الزمخشري، وقد اقتصرنا على دراسة الأفعال الكلامية، ونظرية الاستلزام التخاطبي، والسياق، ومبدأ التأدّب والقواعد المتفرّعة عنه، دون الأبعاد الأخرى للتداولية؛ لأنّ اهتمامه

بها كان كبيرا، واعتماده عليها كان بارزا، وتطبيقه لها كان عميقا، وانتخبنا نماذج من سورة النمل للتدليل على ذلك. وفي إنجاز البحث اعتمدنا على المنهج التحليلي الاستنباطي، كما اقتضت طبيعة البحث الاستعانة بالمنهج التقابلي.

وبعد هذه المقدمة المختصرة من المستحسن الاستهلال بالتعريف بمصطلح التداولية (pragmatirs) وموضوعها؛ حيث يعود بمفهومه الحديث إلى الفيلسوف الأمريكي: تشارلز موريس (charles morris)، الذي استخدمه سنة 1938م، على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات، وهذه الفروع هي:

-علم التراكيب: وهو يعنى بدراسة العلامات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض.

-علم الدلالة: وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها، أو تحيل إليها.

-التداولية: وتهتم بدراسة علاقة العلامات بمفسّريها[1].

وتُعنى التداولية بتحليل الظاهرة اللغوية ضمن سياقها الاستعمالي، فهي: "تختص بدراسة المعنى كما يوصله المتكلم (أو الكاتب)، ويفسّره المستمع (أو القارئ)؛ لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة، فالتداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم"[2].

كما تجدر الإشارة إلى أهم محاور التداولية، والتي منها نظرية الأفعال الكلامية:

وهي نظرية أرسى دعائمها أوستين، وأقام بنيانها تلميذه سيرل، فقد دعا أوستين في محاضراته الأولى إلى الاهتمام بجانب المعنى في دراسة العبارات اللغوية، حيث قال:"إن نمط العبارة المتلفَّظِ بها مما سنشرع في دراسته هنا، ليس بالطبع العبارة الخالية من المعنى"[3]

والفعل الكلامي هو:" كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي إنجازي تأثيري، وفضلا عن ذلك يعدّ نشاطا ماديا نحويا، يتوسّل أفعالا قولية لتحقيق أغراض إنجازية (كالطلب، والأمر والوعد والوعيد...إلخ)، وغايات تأثيرية تخصّ ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثَم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيا أو مؤسّساتيا، ومن ثَم إنجاز شيء ما"[4]

ومن أهم محاور التداولية كذلك: الاستلزام التخاطبي:

مؤسّس هذه النظرية هو الفيلسوف البريطاني: بول غرايس (Grice j.p) (1913م،1988م) الذي كشف عن مفاهيمها الأساسية في سلسلة محاضراته الشهيرة بعنوان:(محاضرات ويليم جيمس)، ألقاها في جامعة هارفارد عام1967م، وتقوم نظرية الاستلزام التخاطبي على جوانب أساسية في اللغة والمنطق، وتتصل بمسألة الربط بين المعاني، وتفترض أنّ السامع يحب أن يكون قادرا على تمييز ما يقال، ثم العمل على تحديد العلاقة بين ما يقال وما هو ضمني، وأنّ ما يقال يجب أن يكون متاحا للمؤول ليطبق عليه قيد الإتاحية، حسب فهمه للمعاني المنقولة.[5]

ومنها السياق:

ويطلق في الاصطلاح اللساني التداولي على:"بيئة الكلام ومحيطه وقرائنه"[6]، ويعتبر السياق الركنَ الأصيلَ الذي يستند إليه المتلقّي في أحكام دلالة القول إذ:" يعمل على توجيه الدلالة نحو معنى واحد مقصود من بين عدد من المعاني التي يسمح بها الأسلوب النحوي مما يساعد في عملية التواصل بين أفراد المجتمع، إذ إنّ ترك الكلام عائما من غير محدد أو موجّه للمعنى، يؤدي إلى ضياع الغاية التي من أجلها نتكلم"[7]

وينقسم السياق في الثقافة الغربية إلى نوعين: نوع داخلي له علاقة بما يسبق النص أو يلحقه، وهو السياق اللغوي، ونوع خارجي يشمل سياق الموقف وسياق الثقافة"[8]

وتأسيسا على ما سبق يمكننا دراسة السياق عند الزمخشري، وأثره في تحديد دلالة الأفعال الكلامية الواردة في سورة النمل، وهو نوعان:

النوع الأول: السياق اللغوي: يعدّ السياق اللغوي من المرتكزات الأساسية للنظرية التداولية؛ لكنّ المتأمل في فلسفة التأويل اللغوي عند الزمخشري يجد عنده تطبيقا فعليا وبصور مختلفة، ويظهر ذلك جليّا في تحديده لدلالة الكلمات، وبيان معاني الآيات في محيطها الداخلي.

فبيّن الزمخشري دلالة الحرف في السياق اللغوي في تفسيره لسورة النمل:

ويمكن التمثيل له ببيانه لدلالة حرف الفاء، وهو مقترن بسياقه الكلامي، وبالوحدات اللغوية التي تسبقه والتي تليه، كما في تفسيره لقول الله-تعالى-:**"فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما ءاتاني الله خير مما ءاتاكم"**(النمل37)، فقد بيّن اختلاف المعنى بين

مجيء الآية بالفاء في:**"فما ءاتاني"** على معناها لو أتت بالواو فقال:"إذا قلته بالواو فقد جعلتُ مخاطبي عالما بزيادتي عليه في الغنى واليسار، وهو مع ذلك يمدني بالمال، وإذا قلته بالفاء فقد جعلته ممن خفيت عليه حالي، فأنا أخبره الساعة بمالا أحتاج معه إلى إمداد كأني أقول له: أُنكر عليك ما فعلت؛ فإني غنيّ عنه"[9]

فسليمان- عليه السلام- يخبر ملكة سبأ بفضل الله عليه وتفضيله له، وينكر عليها فعلتها فقد خرج الاسفهام في هذه الآية عن أصل معناه، من كونه فعلا كلاميا مباشرا إلى كونه فعلا كلاميا غير مباشر تمثّل في الإنكار.

ويُلحظ على تفسير الزمخشري لهذه الدلالة المتضمَّنة في القول: مزاوجته بين السياق اللغوي وسياق الموقف الذي يراعى فيه حال المخاطب أثناء تحليل الرسالة اللغوية: "فمراعاة حال المخاطب هو عنصر من عناصر سياق الموقف في النظرية السياقية"[10]

وهذا المعنى الذي أكّده عبد القاهر الجرجاني، معتبرا الأسباب التي تدعونا إلى تأويل بعض النصوص التي تحتوي على أداة السؤال إلى معنى الإنكار، هو سياق يكون خارج الأسلوب نفسه، يتمثّل بحال المتلقّي أو فعله المستَنكر.[11]

كما بيّن دلالة الكلمة وأثرها في السياق:

وقف الزمخشريّ في مواضع عدة من سورة النمل عند دلالة مفرداتها، ومدى ملاءمتها للسياق الذي وردت فيه، ومن بين المواضع التي وقف عندها قول الله- عزوجل-:**" قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين"** (النمل27)، فقال:" أراد أصدقت أم كذبت، إلا أنّ: **" كنت من الكاذبين"** أبلغ"[12] وعلّل ملاءمة **" أم كنت من الكاذبين"** للسياق بأنّ المعروف من الهدهد الصدق، فلو أنّه:" معروف بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذبا لا محالة، وإذا كان كاذبا اتُّهم بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به"[13]

ولم يُغفل الزمخشري الإشارة إلى دلالة النص القرآني ككل وملاءمتها للسياق الذي ترد فيه:

فأشار إلى أهمية التأليف والترتيب بين العناصر اللغوية، بل إنه ذهب إلى فضاء داخلي أوسع من التأليف والترتيب بين العناصر، وهو النص القرآني ككل، فقد جعل القرآن الكريم بنية

لغوية متكاملة يفسّر بعضُه بعضا، وقد صرّح بهذا في تفسيره لقول الله- سبحانه-:"**ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكلٌّ ءاتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كلّ شيء إنه خبير بما تعملون**"(النمل89)، حيث قال:"فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضِه بحجزة بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحدا"[14]

ويتجلّى اهتمامه بالسياق الداخلي للنص أيضا في اعتبار قوله – تعالى-:"**وإنك لتُلَقّى القرآن من لدن حكيم عليم**"(النمل6)، مقدّمةً وافتتاحا لما سيأتي بعدها، فهي:" بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه."[15]

والنوع الثاني: السياق غير اللغوي (الخارجي):

وهو إما أن يكون سياق موقف:

فلقد فسّر الزمخشري الأفعال الكلامية الواردة في سورة النمل، وهي مقترنة بسياقها الكلامي، ومرتبطة بمقصود الشارع- عزوجل- من الخطاب، فجمع بين الخطاب القرآني وملابسات نزوله، ويتضح هذا في تفسيره لقوله-تعالى-:"**يا أيها الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون**"(النمل32)، فملكة سبأ قد راعت حال المخاطَب- وهم أشراف وسادة قومها- وهذا يندرج ضمن سياق الموقف-الذي يُعنى فيه بحال طرفي العملية الكلامية (المتكلم والمخاطب)، يقول:"قصَدَتْ بالانقطاع إليهم والرجوع إلى استشارتهم واستطلاع آرائهم: استعطافَهم وتطييبَ نفوسهم ليمالئوها ويقوموا معها"[16]

أو يكون سياقا ثقافيا:

وقد اعتنى الزمخشري بعنصر السياق الثقافي في تأويله لآيات سورة النمل، فمزج بين البنية اللغوية، وعلاقتها بالملابسات الثقافية الخارجية التي أنجزت فيها، ففي قول الله-تعالى-:"**وتفقّد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين**"(النمل20)، يقول:"**ما لي لا أرى الهدهد**"، على معنى أنه لا يراه، وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب؟ كأنه يسأل عن صحّة ما لاح له."[17]

وخروج الاستفهام هنا من غرض السؤال، إلى التعجب من غياب الهدهد لشدة ملازمته ومصاحبته لنبي الله سليمان- عليه السلام-، ثم عرض الزمخشري الملابسات الخارجية لهذه الواقعة فبيّن أنّ:" سليمان- عليه السلام- عزم على السير إلى اليمن، فخرج من مكة صباحا...فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضا حسناء أعجبته خُضرتُها فنزل يتغذّى ويصلّي فلم يجدوا الماء، وكان الهدهد يرى الماء من تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاجة، فيجيء الشياطينُ ويستخرجون ذلك الماء، فتفقّده لذلك."[18]

ومن أبعاد التداولية التي أولاها الزمخشري عناية فائقة: الاستلزام الحواري:

وتتغير الحمولة الدلالية للعبارات اللغوية في اللغة العربية وفق: "ارتباطها بمقاماتِ إنجازها ولا ينحصر فيما تدل عليه صيغُها الصورية، من استفهام وأمر ونهي ونداء إلى غير ذلك من الصيغ المعتمدة في تصنيف الجمل."[19]

إنّ الانتقال من دلالة المعنى الحقيقي إلى دلالة الوضع المستلزم، هو ما عبّر عنه" غرايس" بمصطلح: الاستلزام التخاطبي:" وهذه الدلالات المتوارية خلف المعنى الظاهر تحتاج لمفسّر ومؤوّل مرنٍ ذي دراية كبيرة".[20]

وقد كان الزمخشري صاحب ملكة تفسيرية تداولية، مكّنته من استنباط المعاني التي تضمّنتها سورة النمل، ومن ذلك تفسيره للدلالة المنقلبة من أسلوب الاستفهام إلى التعجّب في قول الله- تعالى-:**"ما لي لا أرى الهدهد"**، على معنى أنه لا يراه، وهو حاضر لساتر ستره، أو غير ذلك، ثم لاح له أنه غائب؟ كأنه يسأل عن صحّة ما لاح له"[21]

فسليمان- عليه السلام- يتعجّب من غياب الهدهد مع شدّة ملازمته له: "ويحلَّل هذا الاستفهام تداوليا إلى مايلي:

-القوة الإنجازية الحرفية (ق ح): هي الاستفهام عن عدم رؤية الهدهد.

-القوة الإنجازية المستلزمة (ق م): هي التعجب، ذلك أنّ الهدهد كان لا يغيب عن سليمان إلا بإذنه".[22]

كما علّل الزمخشري خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معنى التوبيخ في قوله - تعالى-:**" أمّن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"**(النمل66)، بقوله:" فإن قلت: كيف قيل لهم:**" أمّن يبدؤ**

الخلق ثم يعيده" وهم منكرون للإعادة؟ قلت: قد أزيحت علّتهم بالتمكين من المعرفة والإقرار، فلم يبق لهم عذر في الإنكار، من " **السماء**": الماء، ومن" **الأرض**": النبات،" **إن كنتم صادقين"** أنّ مع الله إلها فأين دليلكم عليه؟"[23]

ومن ذلك أيضا قوله-تعالى-:"**حتى إذا جاءوا قال أكذّبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أمّاذا كنتم تعملون"**(النمل87)

فهذا الأسلوب- وإن كان كان يحمل بنية شكلية استفهامية ظاهرة-؛ إلا أنّه لا يطلب الجواب، وإنما الغرض منه توبيخ المخاطب الذي يجحد أن يكون القرآن من عند الله:" كأنه قال: أكذّبتم بها بادئ الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق أو التكذيب، أي: أجَحَدتموها ومع جحودكم لم تلقوا أذهانكم لتحقيقها وتبصّرها".[24]

وأما قوله- سبحانه-:" **أماذا كنتم تعملون"**، فقد علّق عليه بقوله:" فهذا الاستفهام أريد به التبكيت لا غير، وذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب، فلا يقدرون أن يكذّبوا ويقولوا قد صدّقنا بها، وليس إلا التصديق بها أو التكذيب".[25]

وليؤكّد ماذهب إليه من التأويل، ساق مثالا يوضّح ويقرّب المعنى إلى ذهن المتلقّي فقال:

" ومثاله: أن تقول لراعٍ وقد عرفته رُوَيْعِيَ سوءٍ: أتأكل نَعَمي، أم ماذا تعمل بها؟ فتجعل ما تبتدئ به أصلَ كلامك وأساسه هو الذي صحّ عندك، من أكله وفساده، وترمي بقولك: أم ماذا تعمل بها؟ مع علمك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتَهْتِه، وتُعلمه علمك بأنّه لا يجيء منه إلا أكلُها، وأنّه لا يقدر أن يدّعي الحفظ والإصلاح".[26]

ومبدأ التأدّب في الحوار من أساسيات التداولية وهو حاضر عند الزمخشري بقوة:

حيث إنّ العملية التخاطبية تستدعي ضوابط خاصة:" تقتضي اشتراك جانبين عاقلين في إلقاء الأقوال وإتيان الأفعال، لزم أن تنضبط هذه الأقوال بقواعد تحدد وجوه فائدتها الإخبارية أو قل: فائدتها التواصلية، نسميها بقواعد التبليغ...كما لزم أن تنضبط هذه الأفعال بقواعد تحدد وجوه استقامتها الأخلاقية أو قل: التعاملية، نسميها بقواعد التهذيب".[27]

وقد اهتم" غرايس" بقواعد التبليغ، المتمثّلة في مبدأ التعاون والقواعد المتفرّعة عنه واهتمت "روبين لاكوف" بقواعد التهذيب المتفرعة عن مبدأ التأدّب، وصيغة هذا المبدأ هي: لِتكن مؤدّبا: ويقتضي هذا المبدأ بأن يلتزم المتكلم والمخاطب في تعاونهما على تحقيق الغاية التي من أجلها دخلا في الكلام.[28]

ونلمس مراعاة الزمخشري للقواعد التهذيبية الثلاث التي أدرجتها" لاكوف" تحت مبدأ التأدّب في:

قاعدة التعفّف: ومقتضاها:" لا تفرض نفسك على المخاطب"[29]، إذ اعتمد الزمخشري في كشّافه أسلوب المبادلة الخطابية، باستحضار مخاطَب مفتَرَض يحاججه، ويقدّم له الدليل، فنجده يفسّر الآية، ويعرض التأويلات التي يمكن أن تحتويها ثم يُرجّح بين الاحتمالات الممكنة، ويقدّمها للمخاطب دون أن يفرض عليه تبنّي رأيه أو حتّى تقبُّله.

قاعدة التشكيك: ومقتضاها:" لتجعل مخاطبك يختار بنفسه"[30]، وقد عني الزمخشري بشرح آيات سورة النمل، ومعرفة أسرارها، وأوجه بلاغتها، بغية إبلاغ معانيها إلى قلب مخاطَبه، فنجده يعرض الغرض المبتغى من كلام الله-عزوجل- في صورة مقبولة، ومعرض حسن تؤثّر في القارئ دون أن يمارس عليه ضغطا في تقبّل رأيه، فيترك له حرية الاختيار بنفسه.

قاعدة التودّد: ومقتضاها:" لتُظهر الود للمخاطب"[31]، ويظهر توظيف الزمخشري لهذه القاعدة حين فسّر المحاورة التي كانت بين ملكة سبأ وأشراف قومها، في قول الله- سبحانه وتعالى-:-:**"يا أيها الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون"**(النمل32)، وقد بيّن الزمخشري القوة الإنجازية التي حقّقها هذا الفعل نتيجة خضوعه لمبدأ التّأدّب، بمراعاة ملكة سبأ لقاعدة التودّد لتتمكّن من استمالة قلوب الملأ من قومها،" فقد قصدت ملكة سبأ بالانقطاع إليهم، والرجوع إلى استشارتهم، واستطلاع آرائهم: استعطافَهم وتطييبَ نفوسهم حتى يقوموا معها".[32]

فتمكّنت من تحقيق الغرض الذي ابتغته من قومها، ويظهر من خلال ردّ قومها في قوله- سبحانه-:**" نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين"**(النمل33)، أي إنّ الفصل في الأمر يرجع إليك؛ فأنت صاحبة القرار:" ونحن

مطيعون لك فمُرينا بأمرك نطعْكِ ولا نخالفْكِ...وأنت ذات الرأي والتدبير فانظري ماذا ترين نتبعُ رأيكِ"[33]، وهذا الذي أدّى إلى نجاح هذا الفعل، واستمرار العملية التخاطبية.

ومما يظهر بجلاء للمطالع للكشّاف المنحى التداولي في تفسير الزمخشري للأفعال الكلامية، ومن ذلك تفسيره للأفعال الخبرية:

اهتم الزمخشري بالبحث في معاني كلمات وأساليب الخطاب القرآني، وبيان أغراضها البلاغية المتضمَّنة في القول، ومن ذلك قوله بأنّ الآيات الأولى من سورة النمل:" جاءت خبرا بعد خبر؛ أي جمعت أنها آيات، وأنّها هدى وبشرى...وما يوقن بالآخرة حقّ الإيقان إلاّ هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمّل المشاقّ"[34]، هذا إخبار عن حال المؤمنين الذين قال الله- تعالى- فيهم:" **طس تلك ءايات القرآن وكتاب مبين، هدى وبشرى للمؤمنين، الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون"** (النمل3/2/1)، ثم أخبر الله – تعالى- عن حال الكفار بقوله:"**إنّ الذين لا يؤمنون بالآخرة زيّنّا لهم أعمالهم فهم يعمهون، أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون"**(النمل5/4)، أي:" أشدّ الناس خسرانا؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من الشهداء على جميع الأمم، فخسروا ذلك مع خسران النجاة والثواب"[35]

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الأفعال الإخبارية حقيقية صادقة، لا تحتمل الكذب؛ لأنّها صادرة من الله- عزوجل-، الذي أوحى بها إلى نبيه الصادق الأمين بواسطة جبريل الأمين- عليهما السلام-، فهي آيات محكمات لا مجال للارتياب فيها.

كما أنّ هناك نماذج من تفسير الزمخشري للأفعال الإنشائية الواردة في سورة النمل:

كالنداء: الذي يعتبر أسلوبا من الأساليب الإنشائية التي تؤدي وظيفة تبليغية في عملية التخاطب، إذ يعمل على لفت انتباه السامع ودمجه في عملية التواصل، فهو:" من الوسائل التي تؤسس لعمل التخاطب قبل الشروع فيه، إذ به يتعيّن المتكلم باعتباره متلفّظا، ويتعيّن المخاطب باعتباره مقصودا بالخطاب"[36]

وقد كان للزمخشري وقفات تفسيرية لكل المواضع التي ورد فيها أسلوب النداء في سورة النمل، اهتمّ فيها بقصد المخاطِب من الخطاب، والغرض الذي يروم إيصاله إلى المخاطَب ومن بين أساليب النداء التي وقف عندها وتحدّث فيها عن الوظيفة التداولية لأسلوب

النداء، واعتبره بساطا وتمهيدا لما يأتي بعده، يؤسّس لعمل التخاطب في تفسير قول الله- تعالى-:**"إنه أنا الله العزيز الحكيم"**(النمل9)، أي:" أنّ مكلّمَك أنا، و:**"الله" بيان ل:"أنا"**، و: **" العزيز الحكيم"** صفتان للمبيَّن، وهذا تمهيدا لما أراد الله أن يظهره على يده من المعجزات يريد: أنا القوي القادر على ما يعبد من الأوهام، كقلب العصا حية، الفاعل كلّ ما أفعله بحكمة وتدبير".[37]

وفي قول الله- تعالى-:**" يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون"**(النمل10) والغرض التداولي منه بثّ السكينة والطمأنينة في نفس موسى- عليه السلام-، ودفع الخوف عنه، وإزالة الرعب الذي حلّ به:" وإنما رعب لظنه أنّ ذلك لأمر أريد به، ويدل عليه:**" لا يخاف لديّ المرسلون"**، فنفى الله الخوف عن الرسل في هذه الآية لاستمالة قلب موسى وإذهاب الخوف منه"[38]

والأمر كذلك من الأساليب الإنشائية التي تناولها الزمخشري بالدراسة:

ويندرج الأمر حسب تصنيف سيرل ضمن قائمة الأفعال التوجيهية التي تهدف إلى:" جعل المستمع يتصرّف بطريقة تجعل مِن تصرّفه متلائما مع المحتوى الخبري للتوجيه، وتتوفر النماذج على التوجيهات في الأوامر والنواهي والطلبات، واتجاه الملاءمة هو دائما من العالم إلى الكلمة، وشرط الصدق النفسي المعبّر عنه دائما هو الرغبة، فكل توجيه هو تعبير عن رغبة بأن يقوم المستمع بالفعل الموجه له"[39]

ومجيء الأمر على حقيقته كثير، لاسيما في كلام الله– عزوجل-؛ إذ تتطابق فيه الغاية من الخطاب، وهي في الغالب تشريعية أو إرشادية أو تعليمية، مع مكانة الآمر أو الناهي.[40]

وقد بيّن الزمخشري الغاية من الأفعال الكلامية المباشرة في قول الله- عزوجل-:**" اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون"**(النمل28)، بقوله:"فألقه إلى الذين هذا الدين دينهم اهتماما منه بأمر الدين، وانشغالا به عن غيره"[41]، فأراد نبي الله سليمان- عليه السلام- أن يعلّم ويرشد هؤلاء القوم الذين يسجدون للشمس، وهي من مخلوقات الله أن يسجدوا لله خالق كل شيء.

وقد تضمّنت الآية أربعة أفعال توجيهية مباشرة، وهي:**"اذهب بكتابي"،" فألقه إليهم"، "تولّ عنهم"، "فانظر"**، وجّهها نبي الله سليمان- عليه السلام- إلى الهدهد،و:" الهدف

المتضمَّن في القول لفعل الأمر، هو طلب الآمر من المأمور القيام بالفعل على وجه الاستعلاء، أو سعيه إلى حمل المأمور على القيام بشيء ما".[42]

كذلك النهي، أسلوب إنشائي وجدنا الزمخشري يتناوله بالتحليل التداولي:

حيث يُعدّ أسلوب النهي من الآليات التوجيهية التي يستعملها المتكلم للتأثير في المتلقّي، ودفعه إلى تغيير سلوكه، وترك ما كان مقدما عليه، ومن ذلك قول الله- تعالى-:**"ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون"**(النمل70)، فقد تضمّنت هذه الآية فِعلَيْن إنجازيين هما: **"لا تحزن"**، و**" لا تكن"**، غرضها ترك الحزن والتحسّر:" لأنّهم لم يتّبعوك، ولم يُسلموا فيَسلَموا وهم قومه قريش".[43]

ويتمثّل الهدف المتضمَّن في القول لفعل النهي، في طلب الناهي من المنهيّ الكفَّ عن القيام بالفعل على وجه الاستعلاء".[44]

د. الترجي:

قال الله- تعالى-:**"إذ قال موسى لأهله إني ءانست نارا سآتيكم منها بخبر أو ءاتيكم بشهاب قبس لعلّكم تصطلون"**(النمل7)، وطالما كان الزمخشري ذا كفاءة لغوية تداولية مكّنته من تأويل هذه الآية تأويلا مناسبا للمقام، حيث يقول:"فإن قلت: سآتيكم منها بخبر ولعلّي آتيكم منها بخبر، كالمتدافعين؛ لأنّ أحدَهما ترجٍّ، والآخر تيقّن"[45]

" فسآتيكم" يقولها المتكلّم وهو متيقّن بأنّه سينجز هذا الفعل، فهو يعِد بتحقيقه، أما قوله:" لعلي ءاتيكم منها بخبر" يتلفّظ بها المتكلم، وهو غير متيقن من أنه سينجز ذلك الفعل حقا، فهو يرجو تحقيق ذلك الأمر مع تجويزه الخيبة، وفيها يقول الزمخشري:" قد يقول الراجي إذا قويَ رجاؤه: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه الخيبة، فإن قلت: كيف جاء بين التسويف؟ قلت: عِدَة لأهله أنه يأتيهم به، وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة، فإن قلت: فلم جاء بأو دون الواو، قلت: بنى الرجاء على أنّه إن لم يظفَر بحاجتيه جميعا، لم يُعدَم واحدة منهما،إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار".[46]

وبهذا العرض التداولي الذي استند فيه الزمخشري إلى الغرض الإنجازي من الخطاب والقوة الإنجازية الناتجة عنه، والذي تحدّث فيه عن ظاهرة إنجازية مهمة، وهي ظاهرة الأفعال الكلامية المركبة:"وهي أفعال كلامية تتركب من فعلين كلاميّين، أحدهما يعضد

الآخر"[47]، وتتمثّل في اقتران فعل الترجي بالوعد، وهذا ماجعل من تحليل الزمخشري لفعل الترجي أكثر استيعابا للمناحي التداولية، من وصف سيرل الذي اكتفى بوصف فعل الرجاء وحده، من دون اقترانه بفعل الوعد، وأخضع فعل الرجاء لمجموعة من الشروط التي إذا تحقّقت في الفعل كان موفّقا وهي:

- شرط المحتوى القضوي: فعل في المستقبل، مطلوب من المخاطب.

- الشرط التمهيدي: المخاطب قادر على إنجاز الفعل، والتكلم على يقين من قدرة المخاطب على إنجاز الفعل.

ليس من الواضح عند كلٍّ من المتكلّم والمخاطب، أنّ المخاطب سينجز الفعل المطلوب في المجرى المعتاد للأحداث، أما عند الزمخشري، فالمتكلم يعد بإنجاز الفعل المطلوب.

-شرط الإخلاص: المتكلم يريد حقّا من المخاطب أن ينجز هذا الفعل.[48]

واستنتاجا من كل ماسبق يمكن أن يقال لقد: "استوعب البحث العربي المتقدّم كل هذه الجوانب، دون إقصاء شيء منها، بل اعتمد البنية اللغوية، وكل العناصر التي ساهمت فيها من داخل اللغة وخارجها، وسبق المسلمون غيرهم في دراسة السياق والقصد، ولم يفصلوا دلالة السياق اللغوي عن السياق الخارجي، فالأخير يعيّن قصد الأول".[49]

خاتمة:

من خلال ما سبق عرضه مما أنجزه التداوليون الغربيون، وما قدّمه الزمخشري في كشّافه نقف على مايلي:

- سبْق الزمخشري للتداوليين الغربيين بقرون عديدة، إلى دراسة العبارات اللغوية ضمن سياقها اللغوي، ومقامها التخاطبي، إذ زاوج في تفسيره للنص القرآني بين بيئة الكلام الداخلي، والملابسات الخارجية المحيطة به.

- العملية التفسيرية عند الزمخشري قائمة على مبدإ التأدب في الحوار، الذي يعدّ أساسا لإنجازية الفعل الكلامي، ونجاح العملية التخاطبية؛ فقد ألمح إلى قاعدة التودّد، وطبّق قاعدتي التشكيك والتعفّف ولو بشكل مضمَر، لكنّه مبثوث في تفسيراته البلاغية الإبلاغية، وتأويلاته لقصد المتكلم.

- وقف الزمخشري عند الدلالة الحرفية للأفعال الكلامية الواردة في سورة النمل، كما اهتم بتفسير الدلالة المستلزمة مقاميا في السورة.

قائمة المراجع:

[1] ينظر: نحلة محمود أحمد، 2002م، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1، ص9.

[2] يول جورج، 2010م، التداولية، تر: قصي العتابي، الدار العربية للعلوم، الرباط، ط1، ص19.

[3] أوستين، 1991م، نظرية أفعال الكلام العامة (كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا للشرق، ص15.

[4] صحراوي مسعود، 2005م، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، ص40.

[5] ينظر: كروم أحمد، 2013م، استلزام التخاطب في معاني العطف ضمن كتاب التداوليات وتحليل الخطاب، بحوث محكّمة، دار كنوز المعرفة العلمية، الأردن، ص639.

[6] العموش خلود،2008 م، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، الأردن، ص25.

[7] المناع عرفات فيصل، 2013م، السياق والمعنى، دراسة في أساليب النحو العربي، مؤسسة السياب، لندن، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، لبنان، ط1، ص180.

[8] ينظر: المناع عرفات فيصل، السياق والمعنى، ص11.

[9] الزمخشري، 1998م، الكشّاف، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، ج4، ص454.

[10] المناع عرفات فيصل، السياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي، ص229.

[11] ينظر: المناع عرفات فيصل، السياق والمعنى دراسة في أساليب النحو العربي، ص229.

[12] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص450.

[13] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص450.
[14] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص477.
[15] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص431.
[16] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص452.
[17] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص445.
[18] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص445.
[19] المتوكل أحمد، 2014، الاستلزام التخاطبي بين البلاغة العربية والتداوليات الحديثة، ضمن كتاب: التداوليات علم استعمال اللغة، تنسيق وتقديم: حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط2، ص292.
[20] كادة ليلى، 2009م، ظاهرة الاستلزام التخاطبي في التراث اللساني العربي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، العدد الأول، ص107.
[21] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص445.
[22] كادة ليلى، 2009م، ظاهرة الاستلزام التخاطبي في التراث اللساني العربي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، جامعة الوادي، العدد الأول، ص110.
[23] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص466.
[24] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص475.
[25] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص485.
[26] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص475.
[27] عبد الرحمن طه، 1998م، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط1، ص237.
[28] ينظر: عبد الرحمن طه، المرجع نفسه، ص241/240.
[29] عبد الرحمن طه، المرجع نفسه، ص241.
[30] عبد الرحمن طه، المرجع نفسه، ص241.
[31] عبد الرحمن طه، المرجع نفسه، ص241.
[32] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص452.
[33] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص452.
[34] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص430.
[35] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص431.
[36] نرجس باديس، 2009م، المبشرات المقامية في اللغة العربية، مركز النشر الجامعي، تونس، ص248.
[37] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص433.
[38] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص433.
[39] سيرل جون، 2006م، العقل واللغة والمجتمع، الفلسفة في العالم الواقعي، تر: سعيد الغانمي، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1، ص118.

[40] ينظر: المناع عرفات فيصل، السياق والمعنى، دراسة في أساليب النحو العربي، ص182.

[41] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص450.

[42] الشيباني محمد، 2015م، من قضايا تصنيف الأعمال اللغوية (مشروع قراءة)، مكتبة علاء الدين، تونس، ط1، ص254.

[43] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص470.

[44] الشيباني محمد، من قضايا تصنيف الأعمال اللغوية، ص254.

[45] الزمخشري، الكشّاف، ج4، ص432.

[46] الزمخشري، المصدر نفسه، ج4، ص432.

[47] الحاج إبراهيم، 2018م، المنحى التداولي عند الشاطبي، السياق أنموذجا، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، العدد الثاني والعشرون، ص210.

[48] ينظر: نحلة محمود أحمد، 2002م، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ص75/74.

[49] محمود عكاشة، 2012م، النظرية البراجماتية اللسانية، دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، ص22.